

علم نفس

دراسات في سيكولوجية الاغتراب

تأليف: عبداللطيف محمد خليفة*

الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة 2003م

عرض: معتز سيد عبدالله**

يقع الكتاب في 248 صفحة من القطع المتوسط، ويتناول موضوع الاغتراب الذي يمثل ظاهرة نفسية اجتماعية شديدة الأهمية الآن؛ إذ يعاني من مظاهرها العديد من الأفراد في سائر المجتمعات الإنسانية نظراً للتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي نمر بها.

ويتكون الكتاب من جزأين أساسيين: الأول نظري ويشتمل على أربع دراسات، في حين يشمل الجزء الثاني ثلاث دراسات ميدانية.

والدراسة النظرية الأولى بعنوان «مفهوم الاغتراب وإبعاده». وهدفت إلى تحديد مفهوم الاغتراب من النواحي اللغوية والقانونية والدينية والاجتماعية والنفسية بشكل يبرز التعدد والتنوع في هذه التعريفات ثم التطرق لأبعاد الاغتراب ومظاهره الأساسية. وما يهمننا في هذا السياق المفهوم الاجتماعي والنفسى. فمن ناحية يشير الاغتراب إلى الشعور الذاتى بالغربة أو الانسلاخ detachment سواء عن الذات أو عن الآخرين، بينما يقصد بالاغتراب من ناحية أخرى تدمير وانهايار العلاقات الوثيقة بين الفرد والآخرين وتمزق مشاعر الانتماء للجماعة الكبيرة وتعميق الفجوة بين الأجيال، أو زيادة الهوة الفاصلة بين الجماعات الاجتماعية بعضها عن بعض. وبمعنى آخر هو شعور بالوحدة والغربة وانعدام علاقات المحبة أو الصداقة مع الآخرين، وافئقاد هذه العلاقات، وبخاصة عندما تكون متوقعة.

* أستاذ علم النفس بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

** أستاذ علم النفس بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

وأوضح المؤلف أنه على الرغم من عدم وجود اتفاق تام بين الباحثين على معنى محدد لمفهوم الاغتراب بالشكل الذي نلمسه من الاستعراض السابق لبعض التعريفات، فإن هناك تقارباً فيما بينهم على مظاهر الاغتراب وأبعاده الأساسية. وأهم هذه الأبعاد العجز Powerlessness، ويقصد به شعور الفرد بالاحول واللاقوة وعدم قدرته على السيطرة على تصرفاته وأفعاله ورغباته، واللامعنى Meaninglessness، ويقصد به توقع الفرد أنه لن يستطيع التنبؤ بنتائج سلوكه في المستقبل بدرجة من الكفاءة، واللامعيارية (الأنوميا) Normlessness، ويقصد به حالة انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه، والعزلة الاجتماعية Social Isolation، ويقصد به شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي والافتقار إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية الحميمة والبعد عن الآخرين، والاغتراب عن الذات Self-estrangement، ويقصد به عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه وشعوره بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، واللاهدف Aimlessness، ويرتبط هذا البعد ارتباطاً وثيقاً باللامعنى، ويقصد به شعور المرء بأن حياته تمضي دون هدف أو غاية واضحة، والتمرد Rebelliousness، ويقصد به شعور الفرد بالبعد عن الواقع ومحاولته الخروج عن المألوف والشائع وعدم الانصياع للعادات والتقاليد السائدة ورفض كل ما يحيط به من قيم وعادات وتقاليد.

والدراسة الثانية بعنوان «أنواع الاغتراب». وهدفت إلى إلقاء الضوء على أنواع الاغتراب وأنماطه. وفيها عرض المؤلف لخمس أنواع هي: الاغتراب الثقافي، والاغتراب النفسي، والاغتراب الاقتصادي، والاغتراب السياسي، والاغتراب الديني. وفيما يخص الاغتراب الثقافي تناول المؤلف مظهرين أساسيين من مظاهره؛ وهما: اضطراب الهوية الثقافية وآثار العولمة، والصراع بين الماضي والحاضر في الثقافة العربية. وبالنسبة للاغتراب النفسي هناك نوعان هما الاغتراب عن الذات الفعلية والاغتراب عن الذات الحقيقية، ويقصد بالنوع الأول البعد عن مشاعر الفرد ومعتقداته وفقدان الشعور بذاته ككل. أما الاغتراب عن الذات الحقيقية فيشير إلى غفلة الفرد عن واقعه وفقدان الاهتمام به. وبالنسبة للاغتراب الاقتصادي أوضح المؤلف أنه يحدث نتيجة للتغيرات المجتمعية والحضرية والتكنولوجية والاقتصادية، التي تؤدي إلى تفاقمه. ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى تناول الاغتراب السياسي من حيث طبيعته ومظهره وأسبابه. وأخيراً عرض المؤلف للاغتراب الديني، والعلاقة بين الدين والاضطراب، وأوضح أن الفصل بين أنواع الاغتراب السابقة تعسفي نظراً للتداخل والترابط بينها.

والدراسة الثالثة بعنوان «الاغتراب والتنشئة الاجتماعية والأنساق القيمية». وفيها عرض المؤلف لثلاثة جوانب، يختص الأول بالعلاقة بين الاغتراب والتنشئة الاجتماعية. وأوضح المؤلف أن السياق النفسي والاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد يعد من العوامل التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصحة النفسية للفرد ومدى شعوره أو عدم شعوره بالاغتراب. وتركز الجانب الثاني على موضوع اغتراب اللغة العربية، بينما تطرق الجانب الثالث إلى العلاقة بين الاغتراب ومنظومة القيم في المجتمعات العربية، وناقش المؤلف قضيتين في هذا الجانب هما التناقض أو المفارقة بين القيم والسلوك كأحد مظاهر الاغتراب، والصراع القيمي بين الآباء والأبناء وما يترتب عليه من شعور بتزايد المسافة بين الطرفين، ومن ثم العجز وسوء التوافق وتفاقم ظاهرة الاغتراب.

الدراسة الرابعة بعنوان «علاقة الاغتراب ببعض الاضطرابات النفسية والاجتماعية». وفيها عرض المؤلف لعلاقة الاغتراب بكل من الهامشية والتطرف والعنف والإرهاب وتعاطي المخدرات. وأوضح أن العلاقة بين هذه المتغيرات علاقة دائرية ليست سببية، بمعنى أن هناك اقتراناً جوهرياً بين الشعور بالاغتراب وظهور هذه المشكلات والاضطرابات النفسية والاجتماعية وأنهى المؤلف هذه الدراسة بعرض إطار نظري تفسيري للعلاقات بين الاغتراب وكل من العنف وتعاطي المخدرات.

هذا فيما يتعلق بالجزء النظري الأول من الكتاب. أما الجزء الثاني فقد شمل ثلاث دراسات ميدانية؛ الأولى بعنوان «علاقة الاغتراب بكل من التوافق وتوكيد الذات ومركز التحكم والقلق والاكتئاب لدى طلاب الجامعة». وتكونت عينة الدراسة من 400 طالب وطالبة بجامعة الكويت، واشتملت الأدوات على ستة مقاييس لهذه المتغيرات تحقق من ثباتها وصدقها. وكشفت النتائج عن وجود علاقة إيجابية دالة إحصائياً بين الاغتراب وكل من مركز التحكم الخارجي والقلق والاكتئاب، وعلاقة سلبية دالة إحصائياً بين الاغتراب وكل من التوافق وتوكيد الذات، وأن الاغتراب يعد متغيراً منبئياً بكل من التوافق وتوكيد الذات ومركز التحكم الخارجي وحالة القلق والاكتئاب.

والدراسة الثانية بعنوان: «علاقة الاغتراب بكل من الإبداع والتفاؤل والتشاؤم لدى عينة من طالبات الجامعة». وتكونت عينة الدراسة من 200 طالبة من طالبات

جامعة الكويت طبق عليهن مقاييس متغيرات الدراسة. وتبين أن الاغتراب يرتبط بالتشاؤم إيجابياً وبالتفاؤل سلبياً. أما الإبداع فلم يرتبط بأي من الاغتراب أو التفاؤل والتشاؤم.

أما الدراسة الثالثة والأخيرة فهي بعنوان «العلاقة بين الاغتراب والمفارقة القيمية لدى عينة من طلاب الجامعة». وتكونت عينة الدراسة من 448 طالباً وطالبة بجامعة الكويت طبق عليهم أدوات الدراسة. وتبين أنه لا توجد فروق جوهرية بين الجنسين في مختلف مظاهر الاغتراب باستثناء العجز الذي كان مميزاً للإناث أكثر من الذكور. وكذلك وجود علاقة ارتباطية إيجابية دالة إحصائياً بين الاغتراب والمفارقة القيمية.

ويمثل هذا المؤلف مراجعة شاملة لسيكولوجية الاغتراب من الناحيتين النظرية والميدانية بشكل يتيح للباحثين المعنيين بهذا الموضوع الامتداد بدراسته على أسس رصينة نظرياً ومنهجياً، ويساعد على تراكم المعرفة بما يسهم بعد ذلك في إيجاد حلول لمشكلات الاغتراب التي يعانيها الكثيرون.

ولكن يؤخذ على البحوث الميدانية التي شملها الكتاب، على وجه الخصوص، أنها أجريت على طلاب الجامعة ولم تخرج لنطاق أشكال أخرى من الجمهور في المجتمع ربما تعاني الاغتراب أكثر من غيرها في ظل البطالة وقلة فرص العمل والظروف الاقتصادية الصعبة والعولمة والتغيرات السياسية العالمية والإقليمية التي نعيشها الآن.



